الأدب المتمرد

بعد أسبوع أغادر دمشق إلى بغداد لاشترك في تأبين جميل صدقي الزهاوي، وقد شرعت من أيام في تهيئة الرثاء. من جملة أبيات القصيدة شطر فيه هذه الكلمات:

ومائج الدوح: ولما لا أذكر البيت برمته:

قالت دمشق وقد ودعت غوطتها ومائج الدوح في جنبيَّ مطرد

مائج الدوح! إنها للفظة شعرية؛ ولكني لست أدري هلى أرى في طريقي من مدخل شارع بغداد إلى ضمير دوحاً أي شجراً عظيماً، فما هو الشجر الذي اصطف على جنبي؛ أفتأخذ العين غير الجوز والمشمش والزيتون، فلماذا استعملت الدوح ولم استعمل الجوز أو المشمش مثلا، أفلا يستقيم الوزن إذا قلت: ومائج الجوز؛ أو المشمش الغض بلى، إن الوزن مستقيم، أفلا ترى أن هذه الكلمات: المشمش والجوز والزيتون أقرب من الفهم، أفلا يدرك الذهن معنى هذه الألفاظ أكثر من إدراكه معنى الدوح، وهي لفظة عامة ولا أقول غامضة، وتلك ألفاظ خاصة أوضح منها.

لماذا أبعد عن الحقيقة، لا شك في أن الشعر لا يكره الحقيقة، ولكنه يكرهها متجردة عريانة. إنه مولع باللباس وباللون وبالشكل وبالصورة، وبأي شيء أردت ما خلا التجريد، لأنه من خصائص الفلسفة؛ فهو في هذا الباب عدو العلم؛ فالعلم لا يريد إلا حقيقة متجردة، وكلما كسوت الحقيقة، ولونت كسوتها وزينتها كلما ازدادت نفرته عنها.

ولكني إذا قلت: ومائج الجوز، أو المشمش الغض هل تكون الحقيقة متجردة. كلا، فلماذا انفر عن الصور القريبة من الذهن، واستأنس بالصور البعيدة عنه. لماذا أميل إلى الأشياء الغامضة، العامة، لقد ألفت آذاننا الأدبية سماع الدوح في الشعر، وألفت موسيقى هذه اللفظ، وقلما سمعت الجوز والمشمش والزيتون على أن صورها أقرب من صورة الدوح، والظاهر أن الشعر ميال إلى الصور الغريبة؛ إنه يكره الابتذال، أفرأى واحد منا العرار، كلا ثم كلا، ومع هذا كله من الذي لا يطربه هذا البيت:

تمتع مع شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فالعرار والرند والشيح والقيصوم ألفاظ غريبة عنا لا نعرف صورها ولا نعرف أزاهيرها ولا نعرف منابتها، ومع هذا كله نميل إليها في شعرنا ونفضلها على الورد والياسمين والفل، ولماذا، لأن الأذن تعودت سماعها من ألف سنة أو من ألفين، فهي لا تريد أن تجفوها وأن تطرحها، إنها أنست بها، ومالت إليها، وعطفت عليها، فلا يسهل عليها أن تميل إلى غيرها.

ما أعند الأدب وما أمرده، أفنجد في العلم مثل هذا العناد ومثل هذه المرودة.

من أحد عشر عاماً كان قصر « الفاتيكان» في رومة لا يعرف الآلة الكاتبة ولا يستعملها، ولكنه أدخلها عليه من أحد عشر عاماً، وقد يجوز أن لا تستعمل الآلة في القصر فتاة ناعمة، وأن يستعملها قس من القسوس، وكيف كان الأمر فقد غلب صاحب القصر على أمره فخضع لمستحداثات العلم، ولم يكتف بالآلة الكاتبة، ولكنه جلب «الراديو» حتى يأتيه بأخبار العالم كله، وحتى ينقل بركته إلى النصرانية كلها.

ومن أحد عشر عاماً كان المعهد الفرنسي في باريز لا يستعمل الكهرباء، فإن أهل هذا القصر، قصر «مازاران»، كانوا يحتفظون بهيئته الخاصة حتى لا يشبه أي قصر غيره، إنهم لم يريدوا أن يدخلوا عليه لطائف هذا العصر

وروائعه، حتى لا يصبح مبتذلاً، إنهم لم يريدوا أن ينتزعوا عنه صباغه الارسطوقراطي، حيت يخيل إليهم أنهم في عصر لويس الرابع عشر، ومن أحد عشر عاماً دخلت الكهرباء قصر «مازاران» فأصبح الخالدون يقرأون تحت قبته خطبتهم دون شيء من التعب.

قال الذي روى هذين الخبرين: العلم لا يقف في سبيله شيء. قد يكون تطور البشرية بطيئاً، وقد نقيم في وجه العلم عقبات ولكن العلم يذللها، فإن روح العصر يجري مجراه، ويدخل على كل شيء، ويقلب كل شيء، فالعلم ليس فيه مناقشات باطلة. فإن اختراع الراديو والوقوف على خصائصه إنما هي أمور وضعية لا يمكن عصيانها. قد نمرد قليلاً ثم نخضع؛ وقد نصلب ثم نمرن.

أما العادات وأما الآراء وأما الأذواق فإنها لا تقبل ما يفرضه عليها روح العصر، قد نتمرد وقد نعند، لأن لفظة النجاح فيها فارغة من كل معنى. كل واحد منا يفهم معناها بحسب ما يريد ذوقه أو رأيه أو عادته، أما العلم فإن لفظة النجاح فيه واضحة.

إن للماضي شيئاً من الرونق فهو يستولي على النفوس الرقيقة حتى تكره الابتذال وحتى تشعر بنوع من الفرح في اعتزالها الجماعة وفي انفرادها.

إني أعرف المشمش والجوز والزيتون أكثر مما أعرف الدوح ومع هذا كله فإني متمسك بهذه اللفظة العامة، فأنا لا أقبل فيها وفي أمثالها كالشيح والقيصوم ما يفرضه علي روح العصر. هل في هذا العناد شيء من التقليد أم شيء من العنجهية أم شيء من الجمود، لا أدري، ولكن الذي أعلمه أن الأدب خاضع للذوق، وللعاطفة. فهل يمتد روح العصر، أي سلطان العلم، إلى أذواقنا وعواطفنا!

محاضرة

رسالة الأدب

كان بطل من أبطال روايات (أناتول فرانس) يبسط لبنته مذهباً في الاجتماع ويقول لها ـ كل جماعة يذهب التناسب بين أعضائها وبين الوظائف التي خلقت لها هذه الأعضاء إنما مصيرها إلى الفناء، وقد تسبق هذا الفناء اضطرابات شديدة واختلافات قوية فتنذر بموتها.

سالته بنته في خلال شرحه لهذه المذاهب كيف نستطيع منع الظلم؟ كيف نستطيع تغيير العالم؟ فقال لها بالكلام لا شيء أعظم سلطاناً من الكلام فإن تسلسل البرهانات القوية والأفكار الرفيعة إنما هو الأمر الذي لا سبيل إلى نقضه، مثل الكلام كمثل مقلاع داود، فإنه يحطم الأشداء ويرمي بالأقوياء، الكلام إنما هو السلاح الذي لا يفل، ولولا ذلك لكان العالم عبداً للجيوش المتوحشة، فمن الذي يجبر الأقوياء والأشداء على حرمة غيرهم، الفكر وحده، الفكر المجرّد العريان، دون أي جيش كان.

موضوع حديثي هذا الكلام الذي يحطّم الأشداء ويرمي بالأقوياء، هل عليّ من حرج إن سميت هذا الكلام الأدب.

ما هو عمل الأدب، ما هي رسالة الأدب في البرية.

لا بد لي قبل الخوض في الكلام على رسالة الأدب في طائفة من الأمم من الرجوع إلى بعض عصورنا الأدبية حتى نطلع فيها على

obeikandl.com

نماذج من عمل الأدب في الأمة والجماعة والأفراد، وأظن أن ضرب جملة من الأمثال البسيطة لهذا العمل يمهد لنا سبيلاً إلى تصور شيء يسير من رسالة الأدب في عصورنا المتقدمة.

ابدأ بالعصر الأول الذي خلق فيها الأدب أمة بحذافيرها.

ننظر إلى القرآن نظرتنا إلى كتاب يشتمل على أمور الدين في الدنيا والآخرة ولكننا لا ننظر إليه إلى أثر أدبي، لا شك في أن القرآن جمع كلمة العرب فدخلوا في دين الإسلام أفواجاً، لقد خلق القرآن أمة وخلق لها أفكاراً حديثة لا عهد لها بمثلها من قبل، فقد حوّل العرب من عادات إلى عادات ومن تقاليد إلى تقاليد ومن أفكار إلى أفكار ومن عواطف إلى عواطف، والخلاصة حوّل العرب من حياة إلى حياة.

ولكن هل ننحرف عن الصواب إن نظرنا إلى القرآن نظرتنا إلى أثر أدبي أيضاً، هل ننحرف عن الصواب أن قلنا أن الدين والأدب في القرآن تضافرا على توحيد أمة بأجمعها حتى أصبح لها مثل أعلى واحد في الدنيا والآخرة، وإن استعد العرب لقبول هذا المثل الأعلى فلم يستعدوا لذلك بفضل الدين وحده، وإنما انقلبوا انقلابهم بفضل الأدب فالعرب دخلوا الإسلام من وجهين من وجه الدين ومن وجه الأدب.

من الخطب التي ألفت الرجوع إليها من حين إلى آخر خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم على عثمان بن عفان بفتح افريقية فقد أخبره مشافهة بهذا الفتح وقصّ عليه كيف كانت الوقعة فأعجب عثمان ما سمع منه فقال له يا بني أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس فقال يا أمير المؤمنين أنا أهيب لك مني لهم فقام عثمان في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ـ أيها الناس إن الله قد فتح عليكم افريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله وكان عبد الله بن الزبير إلى

جانب المنبر فقام خطيباً وكان أول من خطب إلى جانب المنبر.

لا ارى بي حاجة إلى ذكر الخطبة برمتها ولكني لا أرى مندوحة عن التمثل بعبارة من عبارات هذه الخطبة فإن عبد الله بن الزبير لما أفاض في الكلام على قتال العدو قال فبتنا وباتوا، وللمسلمين دوى بالقرآن كدويّ النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم.

إني لا أستطيع أن أمرّ بهذه العبارة وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل دون أن أتصور أثر القرآن الأدبي في أولئك المسلمين فكأني سمعت صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح في خطبة ابن الزبير وكأني شهدت المسلمين وقد غادروا أهلهم وأوطانهم وزحفوا إلى العدو فنسوا كل شيء في هذا الزحف، فما شاقتهم أرض ولا سماء، ولا أرهبتهم سيوف ولا رماح فكأنهم غابوا في قتالهم عن أنفسهم وكأنهم ذابوا في شيء واحد، في كلام القرآن الذي أنساهم شدة القتال وألفة الوطن ومحبة الأهل فكان لهم بهذا الكلام دوي كدوي النحل.

يصعب عليّ بعد هذا كله أن لا أعتقد أن هذا الكلام هو الذي جمع كلمة العرب فكان منهم أمة، خلقها دين وأدب.

لقد فتنهم كلام القرآن وبهرهم وسحرهم، ولم أجد ألفاظاً أقوى من هذه الألفاظ لأصور بها عمل أدب القرآن في نفوس العرب.

هذا أبلغ عمل عمله الأدب في العرب، وإذا انحدرنا من العصر الأول الذي ظهرت فيه رسالة الأدب في أقوى مظاهرها إلى العصور الثانية على التدريج، وجدنا أن الأدب اختلف عمله من عصر إلى عصر.

كلنا نعلم حالة الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دهش أولئك الناس، فكأنهم لا يصدقون أن النبي يموت فلما قال لهم أبو بكر أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على

أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.

لما سمع الناس هذا الكلام خرجوا من دهشتهم واستفاقوا من غفوتهم ورجعت إليهم عقولهم وتنبهت فيهم حواسهّم وإذا بالأمر الجليل وهو وفاة نبي يعود أمراً مثل كل أمر يندفع الإسلام في نموه وإن ذهب صاحبه ويستفيض هذا الدين في مجامع الأفاق، فلولا كلام أبي بكر لما علم إلا الله وحده عواقب دهشة المسلمين من وفاة نبيهم.

فلئن خلق أدب القرآن أمة بمجامعها فلقد ثبت أدب أبي بكر هذه الأمة.

وإذا بعدنا قليلاً عن عصر أبي بكر رأينا أن الأدب الذي ثبت أمة ودينا في عصره ثبت ملكاً في عصر آخر.

لما خرج عبد الملك بن مروان إلى أصحابه من شيوخ بني أمية وقال لهم ثلاث مرات ويلكم من للعراق انبرى الحجاج فقال والله أنا لها يا أمير المؤمنين فعلى أي شيء اعتقد الحجاج في الإقدام على أمر أحجمت عنه شيوخ بني أمية وما هي العدة التي أعدها لمثل هذا الإقدام، وهو لو هفا فيه هفوة لذهبت هفوته بحياته وبسلطان بني أمية في العراق.

لا شك في أنه اجتمعت له أسباب كثيرة مكنته من التوفيق في سياسته من جملتها معرفته بطبائع الناس وشرخ شبابه وحيطته لأمره وغير ذك ولكني أرى أن هذه الأمور كلها لو لم تؤيدها بلاغة الحجاج لما نفعته في سياسته، فالحجاج في ميدان البلاغة فارس من الطراز الأول فقد ذكروا عنه إذا صعد المنبر تلفع بمطرفة ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد وقال فيه مالك بن دينار ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج.

فأول خطبة خطبها في الكوفة كان لها أبلغ الأثر في توفيقه فإنه لما قذف

بها علم العلم كله أنه نوم أهل المسجد على تعبير عصرنا هذا، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم وعرف أنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء من هذه الإرادة ومن هذا الشعور ومن الشدة في الكلام والغلظة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد فكان القوم قيد إرادته وقيد إشارته يأمرهم فيأتمرون وينهاهم فينتهون، وأكبر دليل على ذلك قوله لهم يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام، فلما قال قوله هذا قال أهل المسجد كلهم وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته فلولا أدب الحجاج لما كان لبني مروان ملك في العراق ولما كان وراء العراق أئمة في اللغة والفقه هم فخر ميراثنا الفكري على وجه الدهر.ننتقل الآن فجأة من عصر إلى عصر وسنجد في هذا الانتقال أن الأدب أخذ يخص عمله في طبقات خاصة من الأمة، فكأن المسافة بين ثقافة الأمم وبين ثقافة الطبقات الرفيعة قد ترامت أطرافها، فلم يعد للأدب عمل إلا في الطبقات الخاصة، على حين كانت الأفهام في العصور المتقدمة متقاربة، فإذا نجح أدب القرآن وأدب أبي بكر وأدب الحجاج في نفوس الذين سمعوه فلم ينجح إلا لأن المسافة بين هذه النفوس وبين الأدب كانت قريبة جداً.

أما في عصور بني العباس فقد انحصر عمل الأدب في الأفراد.

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي أحب أن يوبخه على رؤس الناس فجيء بإبراهيم يحجل في قيوده فوقف على طرف الإيوان وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال له المأمون لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا إبراهيم فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين فقد أصبحت فوق كل ذي ذنب كما أصبح كل ذي عفو دونك فإن تعاقب فبحق، وإن تعف فبفضلك فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه فقال إن هذين أشارا عليّ بقتلك، فالتفت فإذا المعتصم والعباس بن المأمون فقال يا أمير

المؤمنين أما حقيقة الرأي في معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشار عليك به وما غشاك إذا كان مني ما كان ولكن الله عودك من العفو عادة جريت عليها دافعاً ما تخاف بما ترجو فكفاك الله فتبسم المأمون وقال إن من الكلام ما يفوق الدر ويغلب السحر وإن كلام عمي منه، أطلقوا عن عمي حديده وردوه إليّ مكرماً.

ولماذا نشاهد هذا الأمر في أدبنا، لماذا نشاهد أن الأدب في بدء نشأته في صدر الإسلام خلق أمة، ثم اقتصر أمره على تثبيت مذهب ثم على تثبيت ملك، ثم على إنقاذ رجل، ثم ضعف سلطانه إلى أن أوشك هذا السلطان أن يذهب.

لقد بينت سبباً من أسباب هذه المشاهدة وقد أجد سبباً آخر، ولا بد لي في ذلك من الرجوع إلى تعريف الأدب الذي انتشر في عصورنا المتقدمة وأني اقتصر على تعريف ابن خلدون لأن مقدمته إنما هي بمنزلة دائرة معارف.

المقصود من الأدب في رأي ابن خلدون الإجازة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم ثم حدّ الأدب فقال الأدب هو حفظ اشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف.

هكذا كان رأيهم في الأدب، انصرف الأدباء إلى حفظ أشعار العرب وأخبارها، ولما كانت أبواب الشعر عبارة عن مديح وهجاء ورثاء وغزل وجة الشعر إلى الأفراد ولم يوجه إلى الجماعات، فلم يكن لهذا الشعر عمل في الجماعات، فأكثر الذين مدحوا إنما مدحوا الخلفاء والملوك والولاة والأشراف ولم يمدحوا بطولة الأمة فلم يستفض في أفراد شعب التغني ـ ببطولة الأمة أو بتقاليدها أو بأخلاقها الموروثة أو بوقائعها الخالدة، لم يستفض فيها التغني بأفراحها والبكاء على آلامها فبقي الشعر وهو الذي له السلطان الأعظم في إنشاء الأمم بعيداً عن الشعب، وإذا أحببنا أن نتسامح في بعض الأمر فنقول إن الشعراء لما مدحوا أبطال الملوك والخلفاء والولاة والأشراف لم يريدوا المدح

وإنما أرادوا وصف البطولة، فكانوا يتخذونه من الملك أو من الخليفة أو من الوالي اسمه ويخلعون على هذا الاسم صفات البطولة، فالمتنبي لم يمدح سيف الدولة وإنما مدح ـ البطولة في سيف الدولة فكأنما تقديره لهذه البطولة نوع من الملاحم قد يصح هذا الأمر من باب التجوز والمسامحة ولكن على الرغم من ذلك لم تكن الأماديح ملاحم يحفظها الشعب وتغنى ببطولة أبطالها حتى تكون هذه الأغاني دافعاً له في أيام المحن.

وهذا على ما أظن سبب من الأسباب القوية التي جعلت الشعر قليل السلطان في إنشاء الأمة.

لست أدري لماذا أخذ العرب عن اليونانيين الفلسفة وتركوا أنواع ـ الشعر، وخاصة هذه الملاحم التي جعلت من اليونانيين، كما ستشاهد هذا قريباً، أمة واحدة، وأظن أن السبب في بعد العرب عن الاقتباس عن اليونانيين أنواع الشعر التي تقوي الأمة وتوحدها وتثبتها إنما هو هذا الاعتقاد الجميل في لغتهم وهذا الفخر الشديد بأدبهم فلغة العرب على رأي أبي حيان التوحيدي إنما هي لغة الإفصاح والإيماض اشتهرت بسعتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها وجولانها في اشتقاقاتها ومآخذها البديعة في استعارتها وغرائب تصرفاتها في اختصاراتها ولطيف كناياتها في مقابلة تصريحاتها وفنون تبجحها في أكناف مقاصدها وعجوب مقاربتها في حركات لفظها، ولقد سمع أبو حيان لغات كثيرة من جميع الأمم فما وجد لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، يعني الفرح التي في كلماتها والفضاء الذي نجده بين حروفها والمسافة التي بين مخارجها والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها والمساواة التي لا تجحد في ابنيتها.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فقد نجد في عصورنا الأدبية عصراً كان للأدباء فيه رسالة. فإذا رجعنا إلى مقامات الحريري وجدناها تتضمن الجد والهزل، ثم وجدناها تتضمن هذه الصناعة اللفظية المشتملة على رقيق اللفظ

وجزله وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره ومحاسن الكنايات والأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية.

هذه رسالة الأدب في مقامات الحريري ولكنا نجده من ناحية ثانية توخي في هذه الرسالة التنبيه والتهذيب، فرأينا في المقامات صوراً للأخلاق ولبعض المذاهب، يخرج به الحريري عن أشكال الناس الظاهرة إلى صفاتهم الباطنة.

ولكن رسالته لم تعمل في العامة عملها في الخاصة لأن العامة بعيدة عن هذه الصفات اللفظية التي تفسد على ما توخاه الحريري من التنبيه والتهذيب سبيله فبقي الأدب ارسطوقراطياً إذا جاز لي هذا التعبير على أنا نجد أن معالجة موضوعات مثل الموضوعات التي عالجها الحريري بأساليبه المشتملة على بعض الهزل قد تزيد في قوة التنبيه والتهذيب اللذين رمى إليهما صاحب المقامات، فليس من الضروري أن يكون التهذيب مضجراً مغلقاً وقد كان أكابر كتاب الإفرنجة وفي مقدمتهم «فولتير» يهذبون البشر بكتاباتهم وهم يهزلون ويسلون. غير أن الصناعة اللفظية غلبت في رسالة الحريري الأدبية على ما توخاه فضعف تأثير هذه الرسالة.

إذا استطعت أن اعرض في جزء من هذا الحديث صورة تصور بعض الشيء عمل الأدب أو رسالة الأدب في العرب، فإني أستأذنكم في الانتقال إلى أمة ثانية لنبحث فيها عن رسالة الأدب قبل أن نأتي على ذكر هذه الرسالة في عصورنا الأخيرة.

إذا انتقلنا من العرب إلى اليونانيين وجدنا أن الأدب جمع في القديم كلمة اليونانيين كما جمع القرآن كلمة العرب، فإذا كانت مفاتيح الحس والحكمة لا تزال حتى يومنا هذا في بطون تاريخ الإغريق، وإذا كان الغرب قد احتفظ بأسماء ملوك يونانيين لم يكونوا في الحقيقة إلا لصوص البحار فالفضل في هذا

كله يرجع إلى شعراء الإغريق ونحاتيهم وحكمائهم.

خلدت أغاني الشعراء ومدينة طروادة، ماذا نجد في هذه الأغاني إنا نجد فيها مبالغة رجال البحر في رواياتهم وأحاديثهم وأخبارهم على نحو مبالغة الصيادين والرواد في عصرنا هذا، لقد أفضى أولئك البحريون برواياتهم إلى أبنائهم، فاستمر أولئك الأبناء على ترويض خيالاتهم في الروايات حتى جمع أخلاف «هوميروس» هذه الأخبار والروايات والأحاديث كلها فنشأ شعر الإغريق عن الأساطير ثم نشأ تاريخهم عن الشعر فالأسماء والصور والرموز والتقاليد التي وحَّد بها شعراء اليونان بين قبائلهم هي التي خلقت اتحاد اليونانيين.

لولا هوميروس لما استطاع اليونانيون من بعده أن يغلبوا الفرس. فإذا وجدنا أن اليونانيين اضحوا في قديم الدهر أكبر رجال البر في العالم فمرد بعض هذا الأمر إلى عبقريتهم في الشعر أو كما قال أميل لودويغ إلى فنهم في الأكاذيب، لقد نمّى الشعراء حوادثهم في شعر رائع كان الذين يستمعون إليه يفهمونه حق الفهم، لقد بلغ الشعراء من الولع بالمجد كل مبلغ حتى كان المستمعون إلى شعرهم يحسون بالرغبة في الاستماع إلى حوادث جديدة وحتى كانوا يجهدون في مسابقة أبطال الروايات الشعرية فاختلط الأمر بعد هذا وأصبح الشعراء والابطال شيئاً واحداً، ومن أخبار تلك العصور أن أحد رجال السياسة كان شاعراً وجندياً في وقت واحد وقد اتهّم بتهمة استلزمت مرافعته إلى القضاء فلما مثل بين أيدي القضاة أخذ ينشد شعراً أحدثه فأعجب القضاة ماسمعوه منه فخلوا سبيله فقد أقر القضاة بعبقريته في الشعر، وفي المبالغة في قص القصص على حين كان في استنطاقه بعض التناقض.

هكذا كان سلطان الشعراء في الاغريق. لم يستول اليونانيون على البحر الأبيض بفضل رؤساء جمهورياتهم الصغيرة وإنما استولوا عليه بفضل هوميروس وهيرودويت وفيدياس وأفلاطون وغيرهم من رجال

الشعر والتاريخ والحكمة والنحت وهذا الحدث هو الوحيد من نوعه في التاريخ، فما عرف في التاريخ أن العقل والفن خلقا سلطاناً عالمياً إلا في تاريخ اليونانيين فإن شعر الملاحم جعل من بعض الكسالى واللصوص الذين قالوا إنهم ملوك نماذجَ رجال ونساء ما عرف أظن منهم إلى المجد من بعدهم.

فإذا طوينا تلك العصور البعيدة وجدنا أن الأدب في عصرنا هذا أصبح له رسالة خاصة تختلف على اختلاف الأدباء، لم يعد الأدب في هذه الأيام عبارة عن حفظ أخبار وأشعار، وإنما الأدب على نحو ما قاله «لانسون» لينشيء لذة لنا، ولكنها لذة تروض قوانا العقلية فتخرج العقل من رياضة الأدب أقوى سلطاناً وأمرن طبيعة وأغنى مادة، وعلى هذه الصورة يكون الأدب الباطن ـ هذه هي حقيقة فعله ..

وللأدب الفضل الأكبر في تدريب الناس على ذوق لذة الأفكار ـ إنه يروّض الفكر فيجد المرء في هذه الرياضة مسرته وراحته وتتجدد قواه، إنه يذهب تعبنا الذي نتعبه في ممارسة الأعمال ويرفع العقل فوق كل واجب وفوق كل مصلحة وفوق كل وهم، أصبحت الفلسفة في عصرنا هذا ضرورة العقل ولكن الفلسفة، لا يستطيع درسها كل واحد منا، أما الأدب فإنه يعمم الفلسفة، بالأدب تستفيض في الجماعات المذاهب ـ الفلسفية الكبرى التي ترقي هذه الجماعات وتغير أوضاعها، الأدب هو الذي يتعهد النفوس التي اثقلتها تكاليف الحياة وأغرقتها مشاغل المادة فيحملها على الاعتناء بالمسائل السامية التي تستولي على الحياة وتجعل لها معنى أو غاية، لقد ضعف الدين في كثير من رجال العصر وبعد أفق العلم عن كثير من الناس فالأدب وحده هو الذي ينزع بنا عن الأثرة الضيقة أو عن الحرفة التي تغرس فينا غرائز الحيوانية.

هكذا فهم الأدب رجال الغرب في عصرنا هذا جعلوا له عملاً، وطبقوا هذا

العمل في رواياتهم وقصصهم وكتاباتهم، ولماذا لا نعرض أنماطاً من رسالة بعض الكتاب والشعراء.

إذا رجعنا إلى «روسو» وجدنا أن له سلطاناً على عصره من ناحية أفكاره ومن ناحية مزاجه، فقد كان لمذاهبه السياسية والاجتماعية أبلغ الآثار ونستطيع أن نقول إن «روسو» شارك «روبسبير» في حكمه في الثورة ولا شك في أن لصوت «روسو» في رسالته صدى في نجاح الديموقراطية منذ قرن والمساواة وفي تلبية مطالب الأحزاب المتطرفة وفي محاربة الثروة والملكية وفي هياج الجماعات التي تعمل في بؤس.

لقد وجد بعض نقاد الأدب في «روسو» مصلح الأخلاق فقد شرع في اصلاح اجتماعي ذي عواقب عظيمة، إن الأسرة في أيامه قد انحلت وفككت فعمل «روسو» في رسالته على لحمها وبشّر بتقديس الزواج وبواجبات الزوجين المتبادلة. كانوا يسخرون من التبني، على أن يعمل منه عملاً جليلاً، لقد كان الأبناء يربون بعيدين عن أهلهم دون شيء من العطف والعناية والتعهد فعلم الأمهات محبة الأبناء والانصراف إليهم وأملى على الأباء والأمهات واجباتهم واقترح عليهم تربية المخلوقات التي كانت سبب حياتهم والتي يتوقف عليها مصير البشرية فأدخل بهذا كله السعادة على حياة الأسرة.

وهكذا نجد لكل أديب في الغرب رسالة. فالشاعر الإنكليزي «شامسون» الذي رزق حس الطبيعة العميق كان له سلطان على الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر.

وليالي الشاعر «يونك» كان لها في إنكلترة وفي فرنسة نجاح عجيب، فقد أدخلت هذه الليالي الظلمات على الأدب الفرنسي.

و«شللر» كان له أثر عظيم في الأدب وفي الفكر الألماني بحذافيره بفضل رسائله على «دون كارلوز» وعلى تربية ذوق الجمال.

أما «غوتي» فقد كان وحده في بلاده مصدر نهضة، لقد كان بنفسه نهضة لم تعرفها بلاده لا في القرن السادس عشر ولا في القرن السابع عشر.

والكاتب الإيطالي «سليفيو بلليكو» أبكى أوربة بأجمعها في كتابه سجوني الذي وصف فيه تسع سنين قضاها في سجنه في النمسا .

ماذا كانت رسالة «تولستوي»

كان «تولستوي» في أدبه صنفاً من أصناف الرسل وإذا كان المجال لا يتسع للكلام على هذا الأدب بأجمعه فلا أقل من الإشارة إلى مؤلفه العظيم الحرب والسلم . إنكم تعلمون أنه وصف في هذا المؤلف محاربة نابليون لروسية، ثم وصف زمن السلم الذي جاء بعد هذه المحاربة وحياة الأرياف النقية.

ليس المغزى في هذه الإشارة الكلام على قدرته في الإنشاء والوصف أو على خطب الحوادث الفاجعة أو على فن التصوير ووصف الأخلاق أو على الروح الأدبية السامية الرفيعة في مؤلفه وإنما مغزى اشارتي الخفية هذه الصفات التي ظهرت على مؤلف «تولستوي» فقد كانت رسالة أدب تولستوي في سرد تاريخ الروح الروسية في بدء القرن التاسع عشر ولا مثيل لعمله هذا إلا كتاب البائسين لصاحبه «فيكتور هوغو» على أن بعض الناقدين على الرغم من اعترافهم ببراعة كتاب البائسين المنقطعة النظير رأوا أن «هوغو» في كتابه لم يكن على مستوى واحد وإنما كان متفاوت الدرجات فيه .

وماذا كانت رسالة «دوستوفسكي»

لقد كان دوستوفسكي في رسالته مصور القاعسين والبائسين والمغلوبين في الحياة، أنه يعرف هذه الطبقات كلها فقد قبض عليه سنة تسع وأربعين وثمانية وألف وعمره خمسون سنة وحبس في سجون سيبريا فوصف هذه الشقاوات كلها أوضح وصف وأبلغه في مذكرات دار الموتى وفي الرواية الحلوة ـ الجريمة والعقاب. فقد كان له سلطان

عظيم في نشر عاطفتين كان لهما صدى في الغرب وهما ـ دين عذاب البشرية وعبادة التفكير .

لقد حبب «دوستويفسكي» الحياة إلى الناس في كتبه فإنه لا يزداد ألماً إلا ازداد إيماناً فكل محنة يمتحنه الله بها في هذه الدنيا كانت في نظرته حجة على وجود الله وعلى وجود نفسه، وفي رأيه أن أرخم أغاني الأمل لا تولد إلا في شدة المصائب ولما اتهم هذا الكاتب بمؤامرة حكموا عليه بالعمل الشاق في «سيبريا» فكتب إلى أخيه عدة كتب جاء في بعضها هذا الكلام الرائع ـ «يا أخي إنهم لم يهدموني ولم يدخلوا اليأس إلى قلبي فالحياة حياة في كل زمان الحياة في داخلنا، لا في هذا العالم الذي يحيط بنا.

لقد أحبوا أن يجعلوا من هذا الكاتب رسول الألم واليأس، ولكن كتاباته كلها وحياته نفسها كانت تشتمل على ما يحبب الحياة إلى الناس، فمن كلامه إذا غرقنا فلنغرق على خط عمودي، حتى إذا انكشف الخطر قفزنا قفزة واحدة فنجونا من الموت، فلنلق الحوادث كما يلقاها الطفل دون أي اكتراث، فلنجد في أعماق قلوبنا أفراح الطفولة، لا ينبغي لنا أن نخجل من أنفسنا، يجب علينا أن نحب وأن نأكل.

هذه نماذج من رسالة الأدب في الأمم، قديمها وحديثها، لقد تراءى لكم في أضعافها عمل الأدب في إنشاء الأمم وتثبيت مذاهبها وتأييد ملكها وإصلاح أخلاقها، وتحسين أوضاعها، والخلاصة ظهر لكم عمل الأدب في الحياة كلها، ولقد خفت أن أكون قد أدخلت الضجر على نفوسكم، فإذا تبسطت هذا التبسط في حديثي فما ذلك يعلم الله إلا للفخر الذي أفخره بأن القي كلامي في آذان فتيات وفتيان رزقهم الله من طهارة القلوب ونقاوة الأخلاق، وضياء العقول وسلامة الضمائر ما جعل البلاد تعتمد عليهم وحدهم في المستقبل وإذا جاز لي أن استعير ما قاله أحد بلغاء العرب لأهل الشام قلت فيكم ما قاله الحجاج لأهل

وطنكم من دهور بعيدة ـ أنتم الجبة والرداء، أن هذا التعبير على قدمه ينطبق عليكم الانطباق كله نعم أنتم الجبة والرداء أنتم حصون البلاد ومحاسنها. دخلتم هذه الجامعة لتتعلموا فيها حرية الرأي واستقلال الفكر، وانطلاق الشعور حتى إذا انتقلت إليكم مقاليد الأمور في المستقبل، أمور الأعمال والنيابات والوزارات والرياسات، أمور الحياة كلها خضتم هذه الحياة بحرية واسعة واستقلال مديد وانطلاق وتبسط، فلا يكون حينئذ بينكم وبين الأمة مسافة تسوسون أمورها مسافة مترامية الأطراف، أنتم للأمة والأمة لكم، وما هذا التنافر الذي نشاهده في البلاد من ثلاثين سنة بين طبقات الحكومات وبين طبقات الشعب إلا بسبب التباعد بينهما، فإذا نشأتم على ما يقرب المسافة بين الحاكم والمحكوم بين الراعي والرعية أخلصت الأمة حكمكم وأخلصتم لها، و حينئذ تكون السعادة.

لقد هان عليّ الآن أن أخرج من قاعتكم بنتيجة، تريدون أن تعرفوا ما هي رسالة أدبنا.

إني لا أريد أن أقتبس غاية هذه الرسالة عن كاتب من الكتاب أو عن شاعر من الشعراء في الأمم القديمة والحديثة، وإنما أريد أن اقتبسها عن بيئتنا التي نعيش فيها، إننا نعلم ما نقاسيه في هذه البيئة من أمراض في مجامع نواحينا في سياستنا وثقافتنا واجتماعنا، في حياتنا كلها فإذا لم تكن غاية أدبنا مداواة هذه الأمراض كلها، فلا يكون أدبنا أدباً إذا لم نصل بهذا الأدب إلى إصلاح الأمة من جميع آفاقها، إلى إصلاح وطنيتها وقوميتها وأخلاقها وعقولها وقلوبها، وعاداتها، إلى إصلاح الأمة بحذافيرها فما أظن أننا ننتفع بشيء من حريتنا واستقلالنا.

فأين الأدب الذي يخلقنا خلقاً كما خلق القرآن العرب وكما خلق هوميروس اليونانيين.

الحياة الفكرية في سورية

ما كاد يتقلص ظل العثمانيين عن بلاد الشام حتى دخلت سورية في عهد جديد من التفكير ولكن هذا العهد كانت له ألوان شتى ففي الأيام التي دخل فيها بلاد الشام جيش العرب وجيوش الإنكليز كان التفكير في سورية مطبوع بطابع خاص هو الطابع الوطني فقد كان الشعراء والكتاب يظهر على شعرهم وكتاباتهم استفزاز الهمم واستثارة الشعور وشحذ العزائم لمقاومة الأجنبي ولم يذهب الفكر إلى أبعد من هذه المذاهب فكانت البلاد كلها جاهدة في اقصاء الدولة الأجنبية التي ادعت لها في وطننا حقوقاً وتقاليد وكان بعض المفكرين من وراء هذا الجهد.

أسس في ذلك العهد وهو العهد الممتد من أواخر سنة ١٩١٨ إلى أواسط سنة ١٩٢٠ المجمع العلمي وبعض فروع الجامعة ككلية الطب وكلية الحقوق ولكن هذه المؤسسات كانت بمثابة غرسة تفتقر إلى كثير من التعهد فلم يتسع لها المجال في زمن قصير لعمل شيء حتى كانت أواسط سنة ١٩٢٠ فانتقلت سورية من عهد إلى عهد وهو عهد الانتداب.

في هذا العهد استمر الشعراء والكتاب في اشعال الروح الوطنية التي كانت شائعة في الماضي، فقد كان الشعراء يذكرون الناس بنكبتهم الوطنية وهي دخول دولة أجنبية بلادهم وقضاؤها على استقلالهم ولكن على الرغم من هذا دخلت البلاد في أفق جديد من التفكير فقد بدأت البعثات إلى أوربا ولا سيما فرنسا ثم كثرت هذه البعثات فتم امتزاج السوريين ببلاد الغرب وحصل

إطلاعهم على مذاهب الفكر وأخذوا ينشرون بعد عودتهم إلى وطنهم خلاصة ما اقتبسوه عن الغرب فدخل التفكير في سورية في طور جديد لا عهد لها بمثله من قبل فلم تعد مقدمة ابن خلدون وكتب ابن المقفع والغزالي وشعر المتنبي مادة التفكير وحدها وإنما انتشرت على صفحات الجرائد والمجلات مذاهب جديدة في أكثر نواحي الفكر وألفت كتب في ذلك.

إن بلاداً فيها امتحانات البكالورية وتكثر فيها البعثات وينشأ فيها مجمع علمي وتؤسس فيها جامعة لا بد لها من مجال للتفكير جديد، أما المدارس الثانوية فقد نقلت التفكير العام من حال إلى حال حتى طفق الطلاب يطلعون على مبادئ الأدب والعلم وإني لأذكر أياماً كنت أتولى فيها رياسة ديوان وزارة المعارف منذ خمس وعشرين سنة أن طبيعة الأسئلة التي كانت تطرح على الطلاب في امتحانات البكالورية كان معظمها يتصل بوصف الطبيعة أو مشهد حتى بدلت هذه الأسئلة وأخذت تطرح على الطلاب أراء أدبية صادرة عن أكابر النقاد لتمحيصها والمناقشة فيها.

وأما المجمع العلمي فقد كان رجاله يلقون على الناس من حين إلى آخر محاضرات عامة يرمون فيها إلى ترغيب الجماهير في العلم وأذاقتهم حلاوة الفكر أذهانهم وكان الإقبال على هذه المحاضرات في أول نشأتها عظيماً لأن الناس قد تفتحت أذهانهم وتطلعوا إلى معرفة حقائق الحياة ثم أخذت هذه المحاضرات يقل عددها فالمدارس قد كثرت في البلاد والتعليم جعلت له أساليب حديثة والمجمع العلمي لم يخلق لالقاء محاضرات عامة وإنما مهمته شيء آخر.

وأما فروع الجامعة التي أسست فقد جرت على سنة الطبيعة فلم تخلق عقولاً جديدة من أول أمرها وإنما الجامعة كانت تنتقل من طور إلى طور حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم ولا شك في أنه اصبح لها فضل عظيم على البلاد، فأكثر خريجيها يعلمون في المدارس الثانوية العلم والأدب والفلسفة

والتاريخ والجغرافية وعلى هذا الوجه قد حسنت أساليب التدريس في المدارس الثانوية. إن أكثر المفكرين في بلادنا قد نشأوا في الجامعة السورية طلاباً وأساتذة فالجامعة أصبحت مادة للحكومات تفزع إليها في اختيار الوزراء والأساتذة والمدرسين وغيرهم من الطبقات الرفيعة أصحاب الاختصاص ولا ريب في أنه إذا ازدادت عناية الحكومات بها فوسعوا عليها بعض التوسع وفسحوا لرجالها في زيارة البلاد الواقعة وراء البحار للبحث والاطلاع والاستقصاء ازداد فضلها وعظم عملها في المستقبل.

قد يصعب عليّ أن أحدد في مقال وجيز ما عملته البعثات في المدارس الثانوية والمجمع العلمي والجامعة السورية في خلال الثلاثين السنة الماضية ولكنا إذا تغلغلنا إلى أعماق عامة الناس فسمعنا طراز أحاديثهم واطلعنا على الجرائد والمجلات وتصفحنا الكتب التي تنشر في سورية وجالسنا رجال السياسة والفكر وسمعنا أحاديثهم إذا علمنا هذا كله استطعنا أن ندرك الإدراك كله ما بلغت إليه الحياة الفكرية في سورية في نصف قرن.

أي شيء لم يتبدل في بلادنا، أي شيء من طراز حياتنا في داخل دورنا وخارجه اي شيء من أشكال لباسنا وبنياننا واصطيافنا وأكلنا وشربنا لم يتغير في خلال نصف قرن وليس من المنطق في شيء أن بتغير هذا كله، أي أن نتغير كلنا ولا يتغير تفكيرنا.

إذا خالطنا العامة وسمعنا أحاديثهم وقابلنا بين هذه الأحاديث في يومنا هذا وبين أحاديثهم من نصف قرن وجدنا أن لغتهم قد انتقلت من أفق إلى أفق إن هذه اللغة قد أخذت تتحول من مظهر عامي إلى مظهر قريب من الفصيح ولو التقطنا طائفة من ألفاظهم وتراكيبهم لوجدناها صالحة للاستعمال في الكتابات الفصيحة ولا شك في أن ارتقاء اللغة ناشئ عن ارتقاء الفكر، ثم إذا اطلعنا على بعض جرائدنا ومجلاتنا وسمعنا ما يذاع من الأحاديث في دور الإذاعة وقرأنا

ما ينشر من بعض الكتب في بلادنا وجدنا أن الفكر السوري أخذ يهضم كل ما يظهر وراء البحار من مذاهب الأدب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد وما شاكل ذلك وما كان لهذه المذاهب كلها من أثر في بلادنا من نصف قرن فالمفكر السوري يستطيع أن يناقش في هذا العصر في مذاهب الفن والعلم المناقشة الدقيقة والسياسة نفسها قد عمل فيها انقلابنا الفكري فقد كنا في مجالسنا السياسية نتسقط أحاديث السياسة على وجه لا أثر فيه لشكل من أشكال العلم لأن مقاومة الأجنبي كانت نبت الشعور الوطني وحده لا نبت الفكر أما اليوم فإنك لا تسمع رجل سياسة يتكلم إلا سمعت من خلال أحاديثه صدى مذاهب الاجتماع والاقتصاد ونحوهما كما ظهرت آثاره على نواحي تفكير الأدباء وإني أعتقد أنه لو بعث رجل من سورية مات منذ نصف قرن ووقعت عينه على بعض مظاهر العمران وسمعت أذنه بعض الأحاديث وقرأ بعض الكتب لدهش الدهشة كلها ولما علم نفسه أين هو لبعد ما بين الحاضر والماضي.

والذي نراه في هذا كله أن المفكر السوري ليس له طابع واحد فكثير من المفكرين درسوا في فرنسا فظهرت على ثقافتهم آثار الثقافة اللاتينية وبعضهم درسوا في بلاد الانكليز والأميركان فطبعت ثقافتهم بطابع إنكليزي أو أميركي وفريق منهم مال في تفكيره إلى مذاهب اليسار وفريق منهم مال إلى مذاهب اليمين واشتد الاقبال في أيامنا هذه على الثقافة الإنكليزية أو الأمريكية وعلى هذا الشكل ستظهر على ثقافتنا السورية في وقت قريب اثار العمل والتجارب كما ظهرت عليها من قبل آثار النظر البعيد.

ولقد هممت أن أنسى شيئاً ذا بال في حياتنا الفكرية أن المرأة في أكثر بلاد العالم أخذت تشارك الرجل في كثير من أعماله ولم تخل المرأة السورية من بعض هذه المشاركة وإذا قابلنا بين تفكير المرأة من ثلاثين سنة وبين تفكيرها اليوم وجدنا أن المرأة السورية قطعت مراحل بعيدة في هذا التفكير فهي اليوم

تعلم في المدارس الثانوية وتعمل في الدواوين والمكاتب وستعلم قريباً في الجامعة نفسها وستشارك الرجل قريباً في حياته السياسية، فقد كان للتعلم وقراءة الروايات ودور السينما والاتصال بالغرب أثر بالغ في نقل المرأة من طور إلى طور حتى أصبحت تدخل في موضوعات فكرية فتكتب وتحاضر وتجادل وتنقد، وما كانت منذ ثلاثين سنة تتقن شيئاً أكثر من مبادئ القراءة والكتابة.

على هذا الشكل أصبحت الحياة الفكرية في سورية قريبة من الكمال لأنها تنتقل من حين إلى آخر من أفق إلى أفق فهي لم تجمد وهي لم تبعد عن تتبع مذاهب الفكر في العام كله.

obeikandl.com

تفسير النص الأدبي

جعلت فرنسة من خمسين سنة تفسير النص الأدبي أصلاً من الأصول التي ترجع إليها في تدريس الأدب، ثم عقد مؤتمر في باريس لا اذكر تاريخه وإنما أذكر أن رجاله، وهم ينتسبون إلى أمم شتى، قرروا أن تفسير النص الأدبي إنما هو أهم شيء في تدريس الأدب.

كان رجال الأدب في قديم عصورنا إذا فسروا نصاً أدبياً، سواء أكان هذا النص شعراً أم كان ثراً، يتوخون تفسير الغريب من ألفاظه، وإعراب المشكل من تراكيبه، والتنبيه على الاستعارات والتشبيهات والكنايات وسائر فنون المجاز فيه، أما اليوم فإذا رجعنا إلى كتاب يجمع قطعاً من الأدب قد فسرها جامعها على أسلوب حديث، فانا نجد هذا التفسير يقوم على أمور شتى، فقد يبحث صاحبه عن الأفكار المستفيضة في القطعة، وعن لغتها، وعن مفردات اللغة ثم يبين رأي العام فيها.

والغرض من هذا كله تعويد الطالب أن يفهم ما يطالعه فهماً صحيحاً، فإذا عرضت عليه قطعة فيها وصف قرية من القرى، ذكر له الأستاذ نوع هذه القطعة ثم بين له الغاية من الوصف، ثم ذكر له لوازم الوصف، فإذا فرغ من هذه كله وضح له مشاهد هذه القرية، وقد تشتمل هذه المشاهد على القرية، وعلى داخلها، وعلى أهلها، فإذا أحاط الطالب بمشاهد القرية، انتقل الأستاذ إلى الكلام على لغة القطعة، فبين للطالب الوضوح فيها، وهو يريد بهذا الوضوح وضع الألفاظ في مواضعها، واستعمال المصطلحات الفنية، ثم ذكر له الألفاظ

المحسوسة في الوصف وعلى هذا النحو من التفسير، يجري في تدريس القطع كلها، سواء أكانت هذه القطع قصصاً صغيرة، أم كانت صوراً، أم غير ذلك، وسواء في هذا كله الشعر والنثر.

فإذا قرأ الطالب نصاً على هذا الشكل، تدرب من جهة على محاسن الإنشاء، ثم فطن من جهة أخرى إلى ما يلجأ إليه صاحب النص من الأساليب في عرض موصوفه على القارئ، وفي نفخ الروح في الموصوف، وفي تفهيم أفكاره التي يبسطها.. لقد تفرغت في كلية الآداب لمحاضرات بكتاب الأغاني بسطت فيها رأي المتقدمين في هذا الكتاب وترجمة صاحبه من كتابه نفسه، وطبائعه وأسلوبه في الحديث والرواية، وتحقيقه في رواياته وأخباره وأحاديثه، ثم تكلمت على الموضوعات التي يشتمل عليها كتاب الأغاني، فتكلمت على ما وصفه في كتابه من عقلية العامة، ومن كتاتيب الجواري والصبيان، ومن لهو الناس في ليلهم ونهارهم، ومن مبانيهم وأنديتهم ومطامعهم وخاناتهم ومجتمعاتهم، وعن الحرية والعبودية في أيام بني أمية وبني العباس ومن اللهو والتبذير وما شاكل هذه الموضوعات.

وقد جمعت كل موضوع على حدة، وربطت أموره بعضها ببعض، وعلقت بعض التعليقات، ولما فرغت من هذه الموضوعات كلها وأوشكت أن أشرع في الكلام على مذاهب النقد الأدبي في الأغاني، وعلى لغة صاحب هذا الكتاب الجليل وأسلوبه سألني الطلاب أن أنتخب لهم قطعاً منه أفسرها تفسيراً حديثاً على النمط الذي أشرت إليه في صدر المقال، فانتخبت للطلاب قطعاً شتى، منها قطعة تبين هزل أبان بن عثمان، وقصة تصف بدوياً في عرس، وقصة صغيرة موضوعها: عفو أمير، ولم اشعر بفائدة تفسير النص الأدبي شعوري به في تدريس هذه القطع.

فقد رايت في قصة «أبان بن عثمان» رواية هزلية ذات أربعة فصول، أعد

صاحبها أبطالها ورتب فصولها ترتيباً محكماً، تنتقل فيها المفاجآت من فصل إلى فصل على سبيل التدريج، بحيث تكون مفاجأة الفصل الثاني أقوى من مفاجأة الفصل الأول، حتى لا يمل شاهد هذه الرواية، وحتى يجد في الفصل الثاني ما يزيد في استمالته.

وكما رتب صاحب الأغاني فصول هذه الرواية ترتيباً محكماً، فقد رتب وصف حالات أحد أبطالها النفسية مثل ترتيبه الأول، فإن الأعرابي الذي عبث به الأمير أبان بن عثمان، كان في الفصل الأول يدخل بعضه في بعض غيظاً ولم يقدر على الكلام، وأما في الفصل الثاني فد تربد وجهه وجحظت عيناه، وهم بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل، وأما في آخر الفصول فلم يستطع ضبط نفسه وحركاته من الغيظ فأخذ القماش وضرب به وجوه القوم لا يالو في شدة الرمي به.

فإذا كنا نقرأ هذه القطعة لنضحك، فلا تكون قراءتنا قراءة، ولكنا إذا قرأناها لنبحث عن طبيعة هذه الرواية الهزلية، وعن وصف نفسية هذا الأعرابي فهمناها الفهم الصحيح، ووقفنا على خصائص الهزل والعبث فيها، وأدركنا لوازم هذا الهزل والمفاجآت فيه وشهدنا هذه الرواية تتمثل على مسمع منا ومحضر.

لا أستطيع أن أصف في هذا المقال كل ما مر بنا في هذه الرواية، وإنما حسبي الإشارة إلى ما أشرت إليه، حتى نفهم فائدة دراسة النص الأدبي.

وقد تمر بنا في بعض الدراسات عبارات تظهر لنا لأول وهلة أنها غاية في الوضوح والصفاء مثل العبارة التي رايتها في قطعة (أعرابي في عرس)، فقد وصف أبو الفرج القرية ودورها وأهلها وثيابهم على لسان الأعرابي فقال:

«فرأيت دوراً متباينة، وخصوصاً قد ضم يعضها إلى بعض، وإذا بها ناس كثيرون، مقبلون ومدبرون، عليهم ثياب تحكي ألوان الزهر».

لا شك في أننا إذا قرأنا هذه العبارة: عليهم ثياب تحكي ألوان الزهر، ظننا أن الصورة واضحة، ولكن الصور غير صافية، ولا يظهر لنا اختلاطها إذا قرأنا هذا النص على أسلوب حديث، فالأسلوب الحديث يقضي علينا بالبحث عن هذه الصورة وعن ألفاظها، فلفظ الزهر في العبارة إنما هو اللفظ البارز الذي عليه المعول، ولكن ما معنى الزهر في اللغة؟ الزهر: النبات ونوره أو الأصفر منه، فقد رأينا بهذا التفسير لوناً واحداً وهو الأصفر، فلنبحث عن لون النور في اللغة النور الزهر أو الأبيض منه. فنحن أمام لونين: الأصفر والأبيض، فإذا كانت الثياب تحكي ألوان الزهر فهي صفر أو هي بيض أو هي صفر وبيض... وهنا يظهر لنا غموض معجمات لغتنا لأنها لا تجزم ولا تقطع، فالصورة التي عرضها أبو الفرج غير واضحة، فلو قال: وعليهم ثياب بيض كالنور وصفر كالزهر لكانت الصورة صافية أما هذا الاطلاق فهو الذي جعلها غامضة، فلكل ثمر زهر خاص، ولكل زهر لون خاص، واللغة العربية فقيرة في الألفاظ الدالة على الألوان، وخاصة في عصرنا هذا الذي استفاضت فيه الكيمياء،وأخذت تجمع بين الألوان، ونشأت عن هذا الجمع ألوان لا نجد لها أسماءً في لغتنا.

لا أريد التبسط في هذا الموضوع، موضوع دراسة النص الأدبي، لأن الكلام قد يطول بي، فإن فكرة واحدة في بعض الأوقات مخبوءة تحت لفظ واحد، مثل فكرة اللون المخبوءة تحت لفظ الزهر، تحتاج إلى تفسير طويل، فنمر عليها، ونظن أنا قد أدركناها وأحطنا بها، ولكنا لم ندركها على حقيقتها وجوهرها.

وقد نجد للكاتب في قطع أدبية مختلفة أسلوباً مختلفاً فقد لجأ أبو الفرج الأصبهاني في القطعة التي سميناها عفو أمير إلى تقطيع عباراته فقال في موضع من هذه القطعة: لا يفلت منه أن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل، فثبت في موضعه، وأحرز حرمه، وقال في موضع آخر: أمن الله روعتك، وحقن دمك وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك... وتكاد تكون هذه

القطعة قصة صغيرة فيها عرض وعقدة وحل أو ختام، فالعبارات القصيرة المقطعة هي التي تصلح للقصص الصغيرة لأن فيها شيئاً من الخفة والسرعة لا نراه في العبارات المديدة التي تصلح لنوع آخر من الأنواع الأدبية.

والخلاصة إذا لم نقرأ الأدب على هذا النحو من القراءة ولم نفسره على هذا الشكل من التفسير فلا يكون فهمنا له فهماً صحيحاً. وعيبنا في القراءة، على نحو ما قال «فاكه» أنا نسرع فيها الإسراع كله، منقادين لرغبة واحدة، وهي أن نقرأ كل شيء، أو أن نقرأ ماتلذنا قراءته انا نسرع في القراءة، وعلى هذا الوجه يضيع علينا أسلوب الكاتب، وتضيع لغته نفسه، لأنا إذا قرأنا على هذا النمط فإنا لا نعنى إلا بخطف الفكرة دون أن نهتم بالمعرض الذي عرضت فيه هذه الفكرة وعلى هذا فانا نحرم أنفسنا طائفة من اللذات، ونخدعها، لأن الفكرة ذاتها لا نهتدي إليها، فإنها مخبوءة في مطاويها، وليس الأسلوب واللغة ضرباً من الزينة نلهو بها، وإنما هي من التحليل.

أن تفسير النص الأدبي على الأسلوب الحديث الذي أشرت إليه هو الذي يبلغ بنا إلى محاسن الفكرة والأسلوب واللغة.

الكتاب السنوي لجماعة الأبحاث في كلية الآداب بالجامعة السورية ١٩٥٠

رأي في الشعر الحر!

لا وزن ولا قافية

من عادتي قبل أن أنام أن أصغي إلى إذاعة من إحدى دور الإذاعة، وقد سمعت في ليلة من الليالي شاباً يدلّ صوته على أنه في مقتبل العمر، وقد ألقى قصيدة ولكني لم أدرك ممّا ألقى، أهو شعر أم نثر، فإذا كان شعراً؛ فإنه خال من الوزن والقافية ومحاسن الصور، إلا أني أكرهت نفسي على السماع حتى يفرغ صاحب القصيدة من إلقائه، فلما فرغ لم يبق في نفسي شيء من كلامه لأني لم أفهم ما قاله، واتفق أن كان إلى جنبي مجلّة «الكتاب» التي تصدر في بغداد، وفيها عدد خاص بذكرى ابن زيدون وفي فاتحة المقالات مقال للدكتور شوقي ضيف من جامعة القاهرة، وعنوان المقال: الإيقاع الموسيقي في شعر ابن زيدون. لا حاجة بنا إلى الثناء على هذا المقال، وحسبي الإعراب على مقدار فهم صاحبه لأسرار الشعر وخائصه، وعلوّ منزلته في هذا الفهم.

إن ناقداً يتعرض لابن زيدون لا مندوحة له عن التنويه بقصيدته الخالدة: «أضحى التنائي »...، وقد أعدت قراءة بضعة أبيات من هذه القصيدة، فقابلت بين حالتي النفسية عند سماع كلام الشاب في إحدى دور الإذاعة، وسماع شعر ابن زيدون، ففي حالتي الأولى لم أشعر في باطن نفسي بحركة من الحركات، أمّا في حالتي الثانية فكأن ابن زيدون نقلني من عالم إلى آخر؛ فشعرت في هذا العالم الجديد شعور ابن

زيدون، وأحسست إحساسه، وفرحت فرحه، وحزنت حزنه. والخلاصة خرجت من نفسي. ودخلت في نفس ابن زيدون.

معاذ الله أن أقدّم هذه المقدّمة للموازنة بين شعر شاب خال من الوزن والقافية وحسن البيان، وبين شعرٍ كله موسيقى وكله بيان. لم أقدّم هذه المقدّمة إلا لأبيّن أني لم أفهم شيئاً من هذا الشعر الجديد، الشعر المجرّد من الوزن والقافية والموسيقى، الشعر الحرّ وأصحاب هذا المذهب في الشعر لا تعوزهم الحجّة في الدفاع عن مذهبهم، وعلى رأس هذه الحجّة قولهم: التطور والتطوير، وهما لفظتان من توليد عصرنا، ولست أدري لمّا نشأ هذا المذهب، مذهب التطور، أكان أصحابه يريدون الانتقال من حسن إلى رديء، أم أنهم يريدون الانتقال من رديء إلى حسن ومن حسنٍ إلى أحسن، فقد جمع «داروين» في كتابه: «هبوط الإنسان» كثيراً من البراهين على أن الجنس الإنساني نشأ نتيجة للتطور من الحيوانات الدنيا، وقال صاحب كتاب:«كتب غيّرت وجه العالم»: « إن أمام الإنسان على هذه الأرض ألف مليون عام آخر؛ يدخل خلالها عامل التطور حتى يبلغ بنا درجات أسمى مما هي عليه اليوم».

من هذا كله يتبين لنا أن « التطور» ينقل الإنسان من درجة سفلى إلى درجة عليا كما نقل الإنسان من درجة الحيوان إلى درجة البشر، وفي رأي ابن خلدون في هذا المعنى: أن آخر أفق من المعادن متصل بأول أفق من الحيوان، وآخر أفق من الحيوان متصل بأول أفق من الإنسان، وآخر أفق من الإنسان متصل بأول أفق من الملائكة.

فالتطور في معتقد ابن خلدون ينقل الإنسان من أفق إلى أفق أحسن.. أفلا نرى أن أفق الإنسان أرفع من أفق الحيوان، وأن أفق الملائكة أرفع من أفق الإنسان؟..

فكأن الذين يبشرون بالمذهب الجديد في الشعر، مذهب الشعر الحر؛ يريدون

أن ينقلوا الشعر من أفقه الأعلى إلى أفقه الأدنى، كأنهم يريدون أن تنحدر آفاق شعرائنا الكبار في الماضي إلى آفاق الشعر الحالي من الوزن والقافية والموسيقية، إلى أفاق الشعر الذي لا يفهمونه ولا يفهمه غيرهم، وإذا كانت الدنيا في رأيهم قد تغيّرت فقد تغيّر حقاً كثير من مظاهر الحياة المادية في الأزياء والملابس والمآكل والمشارب والعادات، على نحو ما نشهده كلّ يوم، حتّى تدلّى شعر الرجل من الرأس إلى ما وراء الأذن وإلى تحت الرقبة، وكادت هيئات الشباب في ظواهرها تشبه هيئات البنات،ة وغير ذلك من الأمور التي ما نظن أن الماضي كان يعرفها... أمّا فكر الإنسان فإذا كان قد تغيّر، فقد ارتقى في تغيّره إلى السماء، فهبط على القمر،وقريباً سيهبط على غيره. وإذا كان ما يقال في ارتقاء الفكر قد يصحّ أن يقال في ارتقاء العاطفة والشعور والذوق والموسيقى ونحو ذلك، فلا يصحّ في وجه من الوجوه أن يكون تصوير هذه الأمور كلها يومنا هذا، أضعف من تصويره في الماضي، فالتطور ينبغي أن يكون في أساليب التعبير، ولكن هل يجوز أن تكون هذه الأساليب في عصرنا أضعف منها في القديم؟

اجل، إن أصحاب المذهب الجديد في الشعر يقولون: إنّ الدنيا قد تغيّرت، وإن المديح والرثاء وما شابه ذلك أصبح لا يناسب العصر الذي نعيش فيه، فقد خلقت في عصرنا أمور قومية ووطنية واجتماعية لا يجوز إهمالها، فكأن هذه الأمور التي نشأت لم تكن في القديم، وكأن شعرنا في الماضي كان خالياً من كل نزعة قومية أو وطنية أو اجتماعية،أو غير ذلك، أمّا المديح الذي يعرضون عنه، فقد يكون لهم بعض الحق في هذا الإعراض، إذا اشتمل المديح على أمور مبتذلة، مكرّرة، وكذلك الرثاء؛ ولكن المديح في الماضي لم يشتمل كله على أشباه هذه الأمور وكذلك الرثاء، فإن المتنبي لما مدح «سيف الدولة» في شعره، لم يقتصر على تشبيهه بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في الكرم، وإنما استخلص

من مدح سيف الدولة صورة البطولة، وأحبَّ أن يقوّي في أهل عصره هذه الصورة، فأيُّ عيب في توليد البطولة في النفوس والقلوب، وهل نحن في عصرنا هذا في غنىً عن هذه البطولة؟

أفلا نرى أن البطولة التي احتجنا إليها في الماضي نحتاج إليها في الحاضر، أفيصبح هذا الشعر المشتمل عليها شعراً بعيداً عن روح العصر الذي نعيش فيه؟ وما يقال في بعض شعر المتنبي يقال في كثير من شعر شعرائنا الكبار الذين أصبحوا في أيّامنا لا يناسبون روح العصر.

لا أدري ما هي نتائج الاستمرار في الإعراض عن شعرنا العربي الأصيل، والإقبال على نوع من الشعر مجردٍ من روح الشعر وخصائصه؟

وممّا يقوي الأمل في نفوس أصحاب الشعر الحرّ أنهم يقولون في بعض مقالاتهم: إن المحافظين على روح الشعر العربي الأصيل قد خلت منهم الساحة، فالميدان الآن ميدانهم. وهذا قول صحيح بعض الشيء، فإن في بلاد العرب عدداً قليلاً من الشعراء المحافظين، وأكثرهم قد قدّمت بهم السن فإذا جاء أجلهم فلا يبقى في الساحة غير المجدّدين الذين لا يفهم كلامهم، فكيف تكون حينئذ حالة الشعر العربي الأصيل، لا بل كيف تكون حالة الأدب كله، ماذا تكون حالة هذا الميراث الضخم من الأدب، شعره ونثره، الذي أورثتنا إيّاه مواضي العصور؛ ماذا تكون حالة هذا الميراث الذي هو جزء منّا، من مزاجنا وطبيعتنا وحضارتنا، لا بل ماذا تكون حالة الأمة كلها إذا فسد هذا الميراث، وشاهت وجوهه؟ فلو سلّط الله أمة من الغزاة على وطننا ولغتنا وحضارتنا، أفكان همّ هؤلاء الغزاة المعتدين بعيداً عن القضاء على هذا الوطن وهذه اللغة وهذه الحضارة؟

هذه نتيجة التطور والتطوير بحسب فهم بعض المجدّدين، أفلا يفكّر في هذا الأمر قبل استفحاله؛ أصحاب الفكر منّا؟

البخلاء في كتاب الجاحظ

لقد توقّفت كثيراً عند الشروع في كتابة هذا المقال، فإن الكلام على بخلاء الجاحظ غير يسير وعُسْر هذا الكلام أنا إذا أردنا الخوض في خصائص هؤلاء البخلاء وأساليبهم في البخل أو إذا أردنا الإشارة إلى بخلهم وشحّهم أو إذا وصف حججهم الطريفة وحيلهم اللطيفة ونوادرهم العجيبة ـ رأينا أن الكلام يضعف وأن البيان يعجز، فمهما نأخذ بالحيطة في هذا الخوض وهذه الإشارة وهذا الوصف فإنّا لا نبلغ الغاية في كل أمر من هذه الأمور. إن قصص بخلاء الجاحظ محبوكة حبكاً لا يمكن تفكيكه، فكلّ قصة من هذه القصص كائن حيّ قد استوفى كل ناحيةٍ من نواحي الحياة، فاللغة فيها كاملة، ناطقة، والأسلوب كامل، ناطق، فاختصار القصّة يذهب برونقها وحلاوتها، ببلاغة لغتها وأسلوبها، فما علينا إلا أن نملأ أذهاننا من هذا العالم العجيب الذي عرضه علينا الجاحظ وخلق لنا في أجوائه نزهةً لعقولنا وقلوبنا، وإذا كنت قد أقدمت على كتابه هذا المقال فإني قد أقدمت من باب الإعجاب ببخلاء الجاحظ لا من باب القدرة على إعطاء كتاب البخلاء حقّه من الوصف أو إعطاء البخلاء حقّهم من التحليل.

إذا كنا لا نجد سبيلاً إلى اختصار بعض قصص البخلاء فلا أقلّ من الإشارة إلى جملة من خصائصهم في الأكل والشرب واللبس أو في الدعوات، وإن كنا نعتقد أن هذه الإشارة لا تغني عن تقليب النظر في كتاب البخلاء الفريد، والتمتع من محاسنه.

لو أحببنا أن نرجع إلى كل قصة من قصص البخلاء في كتاب الجاحظ لرأينا

في كل واحدة منها حجّة طريفة أو حيلة لطيفة أو نادرة عجيبة، بدأ الجاحظ كتابه برسالة سهل بن هرون حين ذمّوا مذهبه في البخل وتتبّعوا كلامه في الكسب، فمن حججه في هذا البخل عدم استواء الناس في الأكل، فلكل طبقة منهم نوع من الأكل، فلا يجوز أن يأكل السيد كما يأكل المسود، والرسالة كلّها حجج في الدفاع عن البخل، سواء أكانت الحجج في الدفاع عن إجادة عجن العجين خميراً، أو في الختم على سلٍّ عظيم فيه كل شيء ثمين، أو في الزيادة في المرق والزيادة في الإنضاج، أو بخصف النعل وتصدير القميص، أو في خزن المال ولو عمّر صاحب هذا المال وتقوّس ظهره ورق عظمه ووهنت قوته، أو في تقديم المال على العلم وفي فضل الغني على الفقير، والغريب في هذا كله أن البخيل لا تدركه الحيرة إذا رموه بالبخل، فإنه يجد لبخله حجّة، وإذا أعوزته الحجة لجأ إلى الحيلة.

انتقل الجاحظ من رسالة سهل بن هرون إلى الكلام على بخل أهل خراسان، وخص بذلك أهل مرو، يقول المروزي للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه: تغدّيت اليوم، فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغديت لغدّيتك بغداءٍ طيّب، وإن قال: لا، قال: لو كنت تغدّيت لسقيتك خمسة أقداح، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير، فهذا النوع من البخل أو من الحيلة اللطيفة يلقي الزائر أو الجليس في كثير من الحيرة، فلا يعرف ماذا يقول بعد أن سدّ صاحب الدار في وجهه كل الأبواب حتّى يسلم من كلفة طعامه وشرابه.

ولم يقتصر الناس على مراقبة أهل مرو في بخلهم ولكن تطلّعهم امتدّ إلى مراقبة حيوانات البلاد حتى جعلوا صلةً قوية بين بخل أهل مرو وبخل حيواناتهم بسبب طبع البلاد وجواهر الماء، فالبخل طبع في أهل مرو وفي أعراقهم وطينتهم، فمن ثمّ عمَّ جميع حيوناتهم. قال ثمامة: لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط يأخذ الحبَّة بمنقاره ثم يلفظها قدّام

الدجاجة إلا ديكة مرو فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ.

ولا يكتفي البخيل بالبخل على زائر يزوره أو جليس يجالسه وليس بينه وبينهما صلة مستحكمة ولكن البخل يقع بين جماعة مترافقين ومعنى هذا الترافق أن الكلفة بينهم مرفوعة، فقد ترافق جماعة في منزلٍ واتفقوا على أن يدفع كل واحد منهم حصّته في إيقاد المصباح ما خلا واحداً منهم فقد أبى أن يدخل مع رفقائه في العزم وأن يدفع ما عليه فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينيه بمنديل ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤه أطلقوا عينيه، فأي بخلٍ أطرف من هذا النوع من البخل، فالمصباح مضيء على كل حال، وإذا الجماعة شدّوا على عيني من لم يدفع حصّته فلا تزيد كلفة إضاءة المصباح، فالكلفة واحدة، أفلا يحق لنا أن نتمتع من هذه الحجج الطريفة، فأيّ حجّة أطرف من حجّة هذه الجماعة؟!. وهذا النوع من الشحَ قد شهد مثله الجاحظ في جماعة من الحجاج فلم يرَ منهم رجلين يأكلان معاً، وهم مع ذلك متقاربون يحدّث بعضهم بعضاً حتى قال الجاحظ بعدما رأى: وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس، ولا شك في أن الحجة في هذا البخل ظاهرة، فإذا أكل رجلان معاً فقد يجوز أن يكون أكل أحدهما أكثر من أكل الآخر وفي ذلك ما فيه من الغبن، وقد أشار الجاحظ في كتابه إلى هذا النوع من البخل في موضع آخر فلا يتطاعم رجلان متزاملان أو مترافقان خوفاً من أن يكون أحدهما آكل من الآخر.

وقد يتفق أن رجلاً من أهل مرو ينزل على رجلٍ من أهل العراق فيكرمه ويكفيه مؤنته ويقول له: ليت أني قد رأيتك بمرو حتى أكافئك، ثمّ تعرض للعراقي حاجة في مرو فينزل على المروزي في ثياب سفره وفي عمامته وفي قلنسوته وكسائه فينكره المروزي ويتغافل ويتجاهل حتى لا يكرمه وحتى لا

يكافئه، ففي كل نوع من أنواع البخل نـرى خلقاً خاصـاً، فهـذا النـوع مـن بخـل المروزي آية في إنكار الجميل والمكافأة على المعروف.

وأغرب شيء أن رجـلاً يطلـق امرأتـه لأنهـا غسـلت خوانـه بمـاءٍ حـارٍّ ولـم تمسحه مسحاً، فهو يريد أن يدسـم الخـوان ليكـون كـالدبغ لـه، والظـاهر أن هـذا الدباغ يحفظه من البلى، فقد يطلّق الرجل امرأته لأمر لا يصحّ السكوت عنه أمّا أن يطلّقها لأنها غسلت الخوان بماء حار ولم تمسحه فهـذا النـوع مـن البخـل مـا نظن أن نوعاً آخر أغرب منه.

وقد يتجلى بخل بخلاء الجاحظ في أكلهـم ولبسـهم وبنـائهم ومـا شـاكل ذلـك، كيف يحافظون على كل شكل من هذه الأشكال حتى لا يضيع شـيء مـن الأكـل أو من اللباس أو من البناء، كمـا يتجلـى هـذا البخـل فـي طبـخ اللحـم وفـي أكـل السمن أو التمر مثلاً وليس ذلك في كثرة الأكل ولا في نوعه ولكن في الطريقـة التي يتبعها البخلاء حتى لا يضيع من هذا الطبخ وهذا الأكل شـيء ولـو رجعنـا إلى القصص المشتملة على هذه الأنواع من البخل لرأينا فيها العجائب والغرائب وما نظن أن الإشارة إليها تغني عن ذكرها والإيتان عليها، وفي كل حال نكتفـي بهذه الإشارة.

أما البخلاء من المسجديين من أهل البصرة فحسبنا ن نعرف أن البخل صـار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ وكالحلف الذي يجمع على التناصر فـإذا التقـوا فـي حلقهـم تذاكـروا هـذا البـاب أي بـاب الاقتصـاد فـي النفقـة والتنميـة وتطارحوه وتدارسـوه التماسـاً للفـائدة واسـتمتاعاً بذكـره، فنحـن نرمـي فـي هـذا التطارح وهذا التذاكر الصلـة القويـة التـي تؤلـف بيـن البخـلاء والأشـحاء، فقد يجمعهم مذهب واحد في البخل وتشغلهم أفكار واحـدة وأهـواء واحـدة ولا نشـك في أن اللذّة التي يجدونها في التقائهم لا تكاد تعادلها لذّة، فكأنهم أسرة واحدة ولا شيء أقوى من البخل في التأليف بينهم.

ولقد اهتدى هؤلاء البخلاء إلى معرفة كل جزء من أجزاء الأضحيّة، وما أكثر معرفتهم بهذه الأجزاء، فلا يضيعون منها جزءاً وأن الإنسان ليعجب من محافظتهم على هذه الأجزاء ومن استفادتهم منها، فقد بلغوا في البخل المبالغ وتفنّنوا فيه كل التفنن، فإذا استلف أحدهم أربع شعيرات يابسة في الصيف أعادها المستلف إلى صاحبها ثلاث شعيرات في الشتاء لأن الشعيرات في الشتاء هي أوزن على زعمه من أربع شعيرات يابسة في الصيف، إن العقل ليدهش من هذا الأمر ويحار فيه كل الحيرة ثم يقول الإنسان: هل بعد هذا النوع من الشح والبخل أو من الحرص غاية من الغايات!

ثم نجد أنه إذا سكر بخيل وكسا في سكره صديقاً له قميصاً ندم على ذلك في صحوه وعلم أنه فعل ما فعل من هفوات السكر، وإن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز، وأخذ يعمل أنواع الحيل في استرداده القميص ويعد مختلف الوعود فلم يفلح في شيء من هذا كله، فإن الذي أخذ القميص أشدّ حيلة من الذي وهبه.

وهؤلاء البخلاء كأنهم قد اتقنوا كل شيء حتى الطب، فنرى بعضهم من فرط بخلهم وشحّهم يجدون لكل نوع من المآكل فائدة. فالمثلثة مثلا «نوع من الشراب يطبخ» تنوب عن الغداء وبها نفخة تغني عن العشاء، وكل شيء من الأحساء فهو يغني عن طلب النبيذ وشرب الماء، ومن تحسَّى العار عرق، والعرق يبيض الجلد، والمثلثة تمنع من التشهّي وهي تدفئ إلى أشياء كثيرة من منافع المثلثة يطول ذكرها، وهذا كله ناشئ عن فرط الشحّ والبخل ولكنه مقرون بحيلة لطيفة وحجّة طريفة.

ومن هؤلاء البخلاء من يكره دعوة إخوانه لأنهم يصبحون بهذه الدعوات أقرب إلى الفقر وأبعد عن الغنى، ومنهم من يدفع الضيف عن التعرض للأكل من الدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، وللرغيف الذي نيل منه

وأصابه بعض المرق، فهذه طبقة من البخلاء لا تهتم بأدب الضيافة ولا ترى في مراقبة الضيف في أكله ومنعه عن أكل صحيح أو أكل ما قد نيل منه شيئ من المحذور أو ممّا يخالف أدب الضيافة، فقد غلب شحهم على كل شيء حتى أصبحوا لا يهتمون بشيء من مراعاة الأدب.

إني لأكتفي بهذه الإشارات القليلة إلى بخلاء الجاحظ حتى لا أزيد في تشويه محاسن كتابه العجيب، فما الذي يجهله هؤلاء البخلاء في بخلهم، ما الذي يفوتهم من معرفة أسرار كل شيء مما يتعلق بمآكلهم ومشاربهم ومنازلهم وأموالهم، ما الذي يذهب عنهم في الوقوف على قواعد الاقتصاد وتنمية المال، فلو أحبَّ كاتب من كتاب الروايات في هذا العصر أن يكشف عن دقائق البخل وأساليب البخلاء لما اهتدى إلى ما اهتدى إليه الجاحظ في تفصيل هذه الدقائق وتوضيح هذه الأساليب، وإذا أحببت أن ألخص الكلام على كتاب البخلاء لما وجدت أبلغ من قول الجاحظ فيه:

«ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيُّن حجة طريفة أو تعرّف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحكٍ منه إن شئت وفي لهوٍ إذا مللت الجدّ».

obeikandl.com

غوطة دمشق في الأدب العربي

أجمعوا قديماً على أن غوطة دمشق أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً، وهي إحدى جنات الأرض الأربع، ولكنها أجلها، فلولا هذه البساتين التي تحيط بجلق، لولا هذه الجنة الخضراء التي تقيها لفحة الصحراء لما كان لهذه المدينة روعتها في الماضي والحاضر.

لا نكاد نذكر دمشق إلا تمثلت لخواطرنا غوطتها الغناء ولا نكاد نذكر الغوطة إلا تصورت لنا دمشق، فالغوطة ودمشق متلازمتان. وعلى هذا الوجه، كلما وقع نظرنا في بيت من الشعر على ذكر دمشق أحيا هذا البيت في أذهاننا كل ناحية من نواحي الغوطة، وكلما مررنا في بيت من الشعر على ذكر الغوطة مثل هذا البيت في خواطرنا تاريخ دمشق.

على أنا إذا وقعنا على ذكر الغوطة في تاريخ ابن عساكر أو في معجم البلدان أو في كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام أو في كتب بعض الرحلات مثل رحلة ابن جبير أو في كتاب محمد كرد علي «غوطة دمشق» أو في دواوين بعض الشعراء من أيام حسان بن ثابت حتى يومنا هذا فانا لا نهتم بالتفاف شجر الغوطة وامتداد ظلالها وهدوء لياليها مقدار اهتمامنا بتاريخها الضخم الحافل بأروع الآثار، لقد أقام بهذه الغوطة أمراء وملوك وخلفاء ملأوا الدنيا وشغلوا الناس،ثم ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها بعد أن خلفوا فيها ذكرياتهم وبقيت الغوطة وحدها تحتفظ بهذه الذكريات.

ماذا نرى في شعر حسان:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أو في قوله:

أنظر خليلي بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

أو في قوله:

ذاك مغنى لآل جفنه في الدهر وحق تعاقب الأزمان

أو في غير هذه الأبيات التي تغنى فيها بقرى الغوطة مثل بلاس وداريا وسكاء.

إذا كنا لا نرى في هذه الأبيات إلا ذكر بردى وإلا ذكر هذه القرى التي سميت لنا، فإن شعر حسان ما صنع شيئاً، وكنا إذا أنشدنا هذا الشعر تمثل لنا ملوك غسان في الغوطة، فتذكرنا عصراً بحذافيره قد انتفض من ماضيه، فرأينا خلال هذا العصر ملوكاً كان لهم في تاريخنا أروع الآثار، ولسنا نرى أولئك الملوك وحدهم ولكنا نشهد مجالسهم في قصور الغوطة ونحضر مواكبها ومواكبهم، فإذا شهدنا تلك المجالس شهدنا في جملتها مجلس جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان. وأخذت أعيننا ما فرش تحت جبلة من الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وما ضرب له من العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وما أوقد له في الشتاء من العود المندى، وما بطن له في الصيف بالثلج، ثم نظرنا إلى كسوته في الصيف وإلى فراء الفنك عليه في الشتاء، هذا كله فضلاً عن حلمه وبذله وحسن وجهه وحديثه.

وإذا حضرنا مواكب الغساسنة ورأينا مراكبهم رأيناهم يلبسون السلاح والحرير ويركبون الخيول معقودة أذنابها، عليها قلائد الذهب والفضة، وعلى رؤوس أصحابها تيجان الملوك.

فإذا كان شعر حسان في آل جفنة في دمشق وقصورهم في الغوطة لا يوحي إلينا ذكرى أولئك الملوك ومجالسهم ومواكبهم ومراكبهم، ولا يحيي لنا الشعر لا

يعطينا شيئاً من روعة الغوطة، فليست هذه الروعة في بساتين الغوطة وحدها أو في جداولها وحدها، وإنما هذه الروعة في الذكريات التي تحتفظ بها الغوطة بين هذه البساتين والجداول.

إن الطبيعة حياة مستقلة، فكل وجه من وجوهها يشتمل على معنى خاص، وجه نجده مجرداً من كل تاريخ ووجه نجده حافلاً بأعظم تاريخ، فالغوطة لا ينبغي لها أن تكون في أدب العرب مجرد شجر ملتف أو حمام ساجع أو ماء هادر وإنما يجب أن تكون مصدر وحي في القديم والحديث.

فإذا أنشدنا شعر ابن قيس الرقيات:

أحلك الله والخليفة بالغو طة داراً بها بنو الحكم

ألمانعو الجار أن يضام فما جار دعا فيهم بمهتضم

أو إذا أنشدنا قوله:

أقفرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال

فإننا لا نبالي بهذه الأبيات وأشباهها مبالاتنا بما تحييه في أذهاننا من ذكريات وأية ذكرى اجمل من ذكرى خلفاء ثبتوا ملك العرب في الشام حتى امتد ظلال هذا الملك إلى مشارق الأرض ومغاربها وحتى قال شوقي فيهم:

بنو أمية للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

عالين كالشمس في أطراف دولتها في كل ناحية ملك وسلطان

فإذا انشدنا شعر ابن قيس الرقيات في بني الحكم ودورهم وقصورهم في الغوطة فانا لا ننشده إلا لنتذكر هذا التاريخ الضخم الذي صحب بني أمية، أما الغوطة ودورها وقصورها فما هي إلا السبيل إلى ذكر ما بناه بنو أمية من مجد خالد على وجه الأرض وكذلك إذا مررنا بأبيات البحتري:

حبذا العيش في دمشق إذا ليلها بَرَدْ

حيث يستقبل الزمان ويستحسن البلدْ

أو إذا مررنا بأبياته:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها … وقد وفى لك مطريها بما وَعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد … مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً … ويصبح النبت في صحرائها بردا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً … أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته … أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

إذا مررنا بهذا كله فإن ذهننا لا يقف على هذا السحاب وحده وعلى هذا النبت وحده، ولا يعني بواكف خضل أو بيانع خضر أو بطائر غرد وإنما هو الذهن يذهب مذهباً أبعد، إنه يرى هذه الغوطة التي وصفها البحتري في شعره ويرى من وراء هذه الغوطة تاريخ خلفاء سكنوا دمشق وغوطتها وبنوا فيها دورهم وقصورهم كل دار مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وكل قصر فيه صحن مفروش بالرخام الأخضر وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب إليها وفي البركة سمك وبين يديها بستان على أربع زواياه أربع سروات كأنها قضّت بمقراض من التفافها، فإذا كنا لا نرى من وراء وصف الغوطة هذا النعيم الذي تقلب الخلفاء في أعطافه فانا لا نرى شيئاً.

لا شك في أن هذه البساتين التي تحدق بدمشق إنما هي فتنة دمشق وسحرها، ولقد ضربت في كثير من البلاد، في أوربة وأميركة وقلما وقعت عيني في هذه الرحلات على مدينة تحيط بها جنة خضراء كما تحيط بدمشق وهذا ما حمل المأمون على أن يحلف بالله أنها خير مغنى على وجه الأرض، وعلى أن يقول: «عجبت لمن سكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي ليس يخلق مثله»، غير أنا لا نهتم بفتنة الغوطة للمأمون مقدار اهتمامنا بمرور المأمون بالغوطة وبإعجابه بها، فإنه جزء عظيم من تاريخنا، فالغوطة تبعث في خواطرنا هذه الفتنة من جهة وتعيد إلى هذه الخواطر ذكرى المأمون وعظمته من جهة ثانية.

obeikandi.com

فإذا بحثنا عن الغوطة في أدبنا العربي فانا لا نبحث عن مظاهر طبيعتها وحدها، وإنما نبحث عما هو مخبوء وراء هذه المظاهر من آثار وأسرار، وما أظن أن أدب العرب في قديمه وحديثه التفت إلى هذا الأمر، فعني بهذه الآثار والأسرار، فلسنا نعرف شعراً أحيا الغوطة من هذا الوجه، حتى ابن الساعاتي نفسه الذي تغنى بدمشق وغوطتها أعذب غناء وتفنن في غنائه وكثرت محاسنه في هذا التفنن حتى ذاب في محبة دمشق وغوطتها وحتى ذابت دمشق في شعره فأصبح صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب، لم يعلّم غوطة دمشق مع هذا كله بياناً تخاطب به أبناءها وتذكرهم بدورها وقصورها وبأمرائها وملوكها وخلفائها بياناً يذكر أبناءها بهذا الرفات المخبوء تحت عشبها. لقد غزاها الغزاة وجبروتهم، فقد نبت عشبها وجددت دورها فاحتفظت بذكرى ماضيها، ماضي فتنها وحروبها، ماضي عظمتها وروعتها.

ومن الإنصاف قبل أن أختم هذا المقال أن لا أغفل ذكر كاتب في عصرنا هذا فتنته الغوطة وكان لها أبلغ أثر في روحه فقد قضى في ظلالها ستين سنة، قضى فيها طفولته وشبابه واكتهاله وشيخوخته، ونعم بربيعها وصيفها وخريفها وشتائها ولم يلق فيها إلا نضرة وسروراً، هذا الكاتب هو محمد كرد علي، سافر في خلال الحرب الكبرى الأولى إلى عاصمة الترك فودع الغوطة بمقال يكاد يكون شعراً من أبلغ الشعر، ضمنه أرق عاطفة وألطف شعور، وهذا بعض ما جاء في هذا المقال:

«وداعاً غوطة الفيحاء، مجلى الطبيعة ومغنى الأنس وروضة الطيبات ومهبط التجليات، سلام زكي كتربتك المسكية، جميل جمال بسطك السندسية، عطر كأنوار أدواحك الجنية وتحية طيبة تتساقط على عمرانك تساقط الوابل والطل على جناتك الغبياء وحراجك الغلباء وأشجارك الميلاء وغلاتك الكثيرة الأتاء...»

لغتنا الكاملة

في (أخبار البحتري) للصولي أن الواثق أنفذ ابن الترجمان إلى ملك الروم بهدايا، قال ابن الترجمان وافقت لهم عيداً، فرأيتهم قد علقوا في باب بيتهم كتباً بالعربية منشورة، فسألت عنها، فقيل: هذه كتب المأمون بخط أحمد بن أبي خالد الأحول، استحسنوا صوره وتقديره فجعلوها هكذا.

وفي هذه الأخبار أن سليمان بن وهب كتب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المعتمد، فقال ملك الروم ما رأيت للعرب شيئاً أحسن من هذا الشكل، وما أحسدهم على شيء حسدي إياهم عليه، والطاغية لا يقرأ الخط العربي وإنما راقه باعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه.

وقد حضرت مؤتمر الثقافة الإسلامية في جامعة «يونستون» سنة ١٩٥٣ فجرى البحث عن تبديل الحروف العربية بالحروف اللاتينية فقال أحد الأساتذة الأميركان «يجب المحافظة على الحرف العربي بالنظر إلى محاسنه ولا يجوز التفكير في تبديل الكتابة العربية».

أفليس من أعجب العجب أن تصدر مثل هذه الآراء عن جماعة من الأعاجم وأن نفكر نحن في تبديل الكتابة حيناً وفي الاستغناء عن لغتنا حيناً آخر.

ما الذي كان يفتقر إليه ملك الروم من أنواع الزخارف في قصوره، ما الذي كان يفتقر إليه في كنائسه من ضروب الزينة والنقش والصور والنحت وأشغال الفن كله، أم ما الذي كان يفتقر إليه قومه من حسن الذوق وإتقان الصنعة، ومع هذا كله لم يستطع ملك الروم وقصوره

وكنائسه قد ملئت بروائع الفن أن يكتم إعجابه بالخط العربي، باعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه.

أفليس من غرائب الأمور أن نستنكر محاسن الحرف العربي وأن ندعو إلى تبديله وهو جزء من فننا الرائع، ولم تقتصر الدعوة إلى تبديل الحروف العربية وإنما امتدت إلى تبديل لغتنا كلها لأنها عميقة من جهة ولأنها لا تتسع لتفكير هذا العصر من جهة ثانية.

أفليس عجيباً أن يقول فيلسوف مثل (رنان) إنه لا يعرف لغة تكاملت في سرعة لا نظير لها مثل لغة العرب وأن نهدم نحن لغتنا لتحل محلها لغة أجنبية.

من الآراء أراء لا يجوز الأخذ والرد فيها فإن الزمن وحده يقضي عليها، ولا خوف من استفاضتها فإنها غير مبنية على قواعد متينة فهي ستذوب كما يذوب الملح في الماء، والرأي القائل بتبدل الكتابة العربية وبالاستغناء عن لغة العرب داخل في جملة هذه الآراء فليس من العقل في شيء أن نجادل فيها فإن مثلها كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ولا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس.

يقول (ديشانيل) في كتابه «اللغة الفرنسية»: قيمة اللغة على قدر ما تعطيه، فهي تموت إذا لم يكن شيء نافع تعطيه الناس، إنها لا تستحق الحياة إلا بسلطانها المعنوي الذي تبسطه على العالم وإلا بخدمتها لهذا العالم».

إذا صح هذا القول، وكله صحيح فإن قيمة لغة العرب عظيمة لأنها أعطت البشرية أشياء كثيرة، أعطت قسماً كبيراً من هذه البشرية في خلال الأحقاب التي تعاقبت عليها فلسفة وعلماً واجتماعاً، وإذا كنا نجهل ذلك فلنسأل تاريخ عصر الظلمات في أوربة لقد اهتدى ذلك العصر بهدي العرب واستضاء بضياء فلسفتهم واسترشد برشد علومهم.

لم تمت لغة العرب وإنما همدت في بعض العصور، فقد ضاع سلطان أهلها زمناً من الأزمان وانبسط سلطان الأعاجم عليها فوقفت ولم تدرج، إلا أنها لم

تمت في وقوفها فقد ظلت الحياة كامنة في جذورها حتى طلع عليها العصر الحديث فقدر الله رجالاً ذابوا في محبتها وفنوا في الاخلاص لها واستنفدوا مجهودهم في بعثها من مرقدها، وفي مقدمة هؤلاء الرجال المخلصين اليازجي الكبير وابنه الشيخ إبراهيم.

إنها لغة عجيبة، أصيبت بمصائب شتى على توالي السنين، صارعتها لغات كثيرة ولكن هذه اللغات ذهبت بين سمع الأرض وبصرها وبقيت هي وحدها خالدة على وجه الدهر، استقبلت فلسفة وعلوماً فخلقت لها مصطلحات ووضعت لها ألفاظاً وأنشات لها أساليب خاصة حتى عمت هذه الفلسفة وهذه العلوم وحتى دخلت في الأذهان وامتزجت بالعقول.

لما طلع عليها العصر الحديث بعلومه وفلسفته وأدبه جارت هذا العصر وسايرت هذه العلوم وهذه الفلسفة وهذا الأدب، ففي كل يوم نرى مصطلحات جديدة وألفاظاً جديدة وما هذا كله إلا آية من آيات حياتها وبرهان من براهين بقائها ولو تتبعنا نشأتها الأولى وصحبناها في انتقالها من البدو إلى الحضر لرأينا قوة هذه الآية وهذا البرهان فكيف نقول إنها عقيمة وهي لم تعجز عن تصوير ما ولدته العقول من فلسفة وعلم وأدب، كيف نقول إنها لا تتسع لتفكير هذا العصر وقد اتسعت لفلسفة اليونانيين وحكمة الهند والفرس.

هل نشأت اللغات الحية كالإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها كاملة من أول أمرها فلماذا استطاعت هذه اللغات أن تتسع لفلسفة هذا العصر ولعلومه ولحضارته ولم يقل أحد من أبنائها بتبديل حروفها أو بالاستغناء عنها على أن لغة العرب قد رزقت من الاستعداد لاستيعاب ما ينشأ عن الفكر والشعور والذوق ما لم ترزقه لغة ثانية، وهذه أبواب النحت والاشتقاق والتعريب شاهدة على ذلك فلماذا نثور على لغتنا وقد حصنت بمثل هذه الآلات.

إننا نعلم أن اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفتقر وتنضب، وإننا

نعلم أن كتابنا في القديم لم يجهلوا ذلك ولو رجعنا إلى إمام البلغاء وهو الجاحظ لوجدناه في كتاب البخلاء يأنس بمصطلحات العامة وبعض لغتها، وإننا نعلم أن اللغة إذا انحصرت في ناحية واحدة سكنت حركتها فلا بد لها من تتبع مذهب الفكر وإلا نفدت مادتها فكلت وهلكت.

إننا نعلم هذا كله ونحن واثقون بأن لغتنا لن تنفد مادتها ولن تكل أو تهلك، وإذا استطاعت أن تعيش في ماضيها فهي تستطيع أن تعيش في حاضرها ومستقبلها، يقولون إن لغتنا تعجز عن الإفصاح عن شعور هذا العصر وإحساساته، فلنسمع ما قاله (أناتول فرانس) في بعض فصوله « لم تتغير شروط الفن من عهد هوميروس إلا قليلاً وإني لا أستطيع أن أتصور أنها ستتغير كثيراً من هذا اليوم إلى يوم القيامة إن البشرية نفسها تتغير ببطء عظيم، ومهما يفقد الشعراء الشباب من صبرهم فإنهم إذا أرادوا أن يعطوا الرجل احساسات جديدة لزمهم أن ينتظروا حصول الرجل على حواس جديدة ومثل هذا الحصول لا يتم إلا في بطء لا نهاية له

فإذا كان الذين يثورون على لغة العرب إنما يثورون لعجزها عن الإعراب عن شعورهم الجديد فليتحقق عندهم أن هذا الشعور الجديد لا يختلف كثيراً عن شعور العصور المتقدمة وكما وسعت لغة العرب شعور من تقدمهم من الشعراء فإنها تستطيع أن تسع شعورهم وستستطيع أن تسعه حتى يوم القيامة.

لم تعجز لغتنا عن استيعاب فكرنا وشعورنا وذوقنا وإنما نحن عجزنا عن الاهتداء إلى صيغ لهذا الفكر ولهذا الشعور ولهذا الذوق.